قصيدة المكاتبة

احمد دحبور

١ ـ كيف أملى عليَّ أبو عَوَّاد مكتوبَهُ الى ولده

: قلْ لهُ يا ولدي
إنه شمسٌ وإنّا منذ عامين شتائيَّيْنْ لم نعثرْ على أيِّ نهارْ
وتدرَّبْنا على الهمِّ ، ولكنْ هَمُّ عامين كثيرْ
رضيَ الله عن الشمس ،
ولم يرضَ لنا أن نقتل العمر انتظاراً بانتظارْ
قلْ له يا ولدي
إنه عُكّازُنا في ليلة الشِّدَّةِ ،
ربَّيْناهُ بالدمعة والصَّبْرِ ،
وَفَيْنا ألْفَ نذْرٍ ليصيرْ
ثُمَّ لمَّا نَبَتَ الرِّيشُ لهُ خَفَّ وطارْ
قُلْ له يا ولدي
نحن لا نطلب حقاً منهُ ،
لا نطلب مالاً أو ثيابا ،
نحن ما عدنا شباباً نتغاوى ،
كلُّ ما نطلبهُ أن يفتح الباب علينا مَرَّةً في الشَّهْرِ،
أن تكتحل العينان بالأغلى من العينينِ ،
أن يغضبَ منّا ونراضيهِ ،
يُسلِّمنا على العمرِ ،
وفي الضِّيق نُواسيهِ ،
ولكنْ أينَهُ يا ولدي ؟
هل ينام الآن ؟ يكفي أن ينامْ
وسنأتيهِ مع الأحلامِ ،
لن نشكو إليه قسوة الأيامِ ،
لن نطرح ـ إن أزعجه ـ حتى السلامْ
قلْ له : إنَّا تعبْنا
كل ما نطلبهُ أن يستريحْ
قلْ له : إنّا عُطِبْنا
بعدُ لم يبقَ لنا إلّاهُ من ضِلعٍ صحيحْ
فَلْيصحِّحْ يومنا المكسورَ ،
لا ظَهْرَ لنا ،
والظُّهْرُ حَرٌّ معتمٌ ، والليلُ ريحْ
قلْ له يا ولدي
إننا نُقْلقُ أبوابَ السماءِ
بالدعاءْ
لتردَّ الغائبينْ
سالمينْ
غانمينْ
فعسىٰ أن يكرم الله على أيامنا السودِ بهِ ،
أو يرجع الله العبادْ
للبلادْ
قلْ له يا ولدي
إن يكنْ يفعلُ ما يفعلُ من أجل البلادْ
أَفَلَسْنا من أهاليها ؟
لماذا تَسْهَرُ الجمرةُ ما بين حريقٍ ورمادْ
ثم لا يبقى لنا إلا السَوَادْ ؟
قلْ له يا ولدي
نحن لا نحتجُّ يا زينَ الرجالْ
إنما أصبحتَ في منتصف الدرب ، وبِتْنا في الأخيرْ
وتدرَّبْنا على الصبر ولكنْ صَبْر عامينَ كثيرْ
روحُنا تذهب شوقاً فاستعدْنا ..
أو أعِدْنا ..
أو تعالْ

٢ ـ حقيقة ما كتبتُهُ إلى عوّاد

سلاماً أيها المنسيُّ ،
إلا في الأناشيد التي آلتْ إلى النسيانِ ،
أو في لهفة الخلّانِ ،
أو في خطّة الأعداءْ
سلاماً يا سليلَ الماءْ
عطشْنا والنهارُ انهارَ في مستنقعٍ عطشانَ ،
لا أشكو لك الدنيا ،
ولم أنقل عن الرؤيا ،
ولكني أبيحُ السِّرَّ :
إنّ البئرَ لا تُبْقي على ماءٍ ،
يُصَفّىٰ الماء كبريتاً ،
ولا يبقى من الكبريت ، يوم النار ، إلّا قشة سوداءْ
ولكنّا نغنّي ، مثلما اعتدْنا ، ظريفَ الطولِ :
قل لي يا ظريف الطولِ ،
هل أرسلْتَ ، في الموّال ، عند الليلِ ،

مرسالاً إلى الأطفال والأهل الحزانى ؟
أم كتمتَ الشوقَ ؟

هل تدري لماذا عدت موديلاً ،
وقد غُيِّبْتَ ، بعض الحين ، عن فترينة الأزياءِ ؟
إذنْ فاقبلْ سلامي ، واسمع الأنباءَ :
غبار النهر (ما في النهر ماءٌ بل غبارٌ) دار في نَقَّالة الأوهامِ ،
لم يرجع بغير الحرب بين العشْب والأصنامِ :
يمشي في رداء القلب سيّافٌ ،
إذنْ فالقلب « مسرورٌ » ،
ويُطْوى في بياض العين نَشَّافٌ ،
إذنْ فالدمع منذور ليوم الفرحة الكبرى
ولستَ الفرحةَ الكبرى
وها مسرورُ السيّاف يدري أنها تأتي متى ما شاءَ
ولكنّا نغنّي ،
والعدوُّ اقتصَّ من أحلامنا الأولى ،
فقصَّ الضلع تِلْوَ الضلعِ من أجسامنا ،
والضالع السيّاف مسرور من النصر الذي لم ندرِ عنه ـ
إلا أنَّ نصراً جاءَ !
وجاء الماءُ .. لا نبعٌ ولا غيمٌ ولا دمعٌ أتى بالماءِ
ولكنّ الحبالى ، رغم جَوْرِ الطَّلْقِ ، لم ينجبْن أطفالاً طوال النصر ،
هل تدري إذن من أين جاء الماءُ ؟
وهل تدري لماذا عدتَ موديلاً ،
وقد غُيِّبْتَ ، بعض الحين ، عن فترينة الأزياءِ ؟
أخيراً ، هل أتاكَ الطائرُ الليليُّ
بالفجر الذي يغمى عليه الأهلُ ؟
هلاّ مَرَّ طيفٌ منكَ ، أو وعد
قد ابيضَّتْ عيون الأهلِ ،
والبئر التي تخفيكَ لم تُرسلْ قميصاً منكَ أو كوفيّةً ،
فاصعدْ إلينا مَرَّةً في الشهرِ ،
جِيء في الليلِ ،
جِيء في النهر يا عينيْ أبيك الصابر المكدودِ ،
يخرجْ من غبار النهر طفلُ الماءْ ،

٣ ـ كيف أجابني عَوَّاد

يأتي الردى من طلقة معروقةٍ ،
فيما يجفُّ العشْبْ ،
هل تعرفُ لوناً للندى ؟
أعرف أنَّ العشب يبقى أخضرا
يضرب للصُّفرةِ أحياناً ويبقى أخضرا
الطائرات السودُ لا تحرفُهُ عن لونهِ ،
إلا إذا تحرفُهُ عن كَوْنهِ عُشْباً ،
ولا ينحرف الشعبُ ،
أنا أُسْند رأسي الآن للصخرةِ ،
والصَّحْبُ وَدودٌ يومُهم ،
فالطائرات افتتحتْ ساعاته الأولى بموتٍ لم يصلْنا ،
وصل التموين لكنْ لم يصلنا خبر عن آخر الأحلامِ ،
هل ما زال فيكم شَجَرٌ يدرجُ ؟
أو أغنية تلهج بالأيتامِ ؟
قُلْ : هل يعرف الآباء كم نذكرهم ؟
والأمهات ، الإخوة ، الأصحاب ، والحارةُ ؟
هل تدرونَ ما يعنيهِ فَجْرٌ دَمَويٌّ ؟
نحن لم نعبر عن الكأس فهل تَعبر عنّا ؟
لم نؤجِّلْ عمل اليوم إلى الأمسِ ،
فقد نام صلاح الدين في صفحةِ تاريخٍ ،
ويرجونا احتمال الليل في صحبة صاروخٍ ، ولا يسمعُنا
لكنني أرفع رأسي فأرى ما يشبه الأيامَ :
هل كان أبي ، يوماً ، فتيّاً أخضرا ؟
أم أنَّهُ ، من يومهِ ، شيخٌ ضعيفٌ يا ترى ؟
أشتاقُهُ ، أشتاق أمي ،
وأحبُّ الفَرَحَ الصاعدَ في قامتها حين تراني ،
لستُ صخراً ، إنما تسند رأسي صخرة
لستُ وحيداً ، وإذا ما بذرتْ لي فكرة فالأهْلُ فيها ،
والمساءُ الماءفيها ،
والهوى ،
قل لأبي : لم أبتعدْ عنهم ، فهم حَوْلي ،
وهم قَوْلي وميداني ،
ولكنّي تعوَّدتُ النهار الخَطِرا
أحلم أن أسقط في حضنٍ ،
وأن تدخل أحلامي في عينٍ سوى عيني ،
ولكنّي تعوَّدْتُ جبالاً لا تعود القهقرى
قلْ لي : إذا عدنا غداً للوطن الفجرِ ؟
ألن أرى قاعدتي في الحلُمِ البِكْرِ ؟
ألن أشتاقها فعلاً ؟
وقل لي ما الذي أفعله لو جئتكم في هذه الأيامِ ؟
أغفو عند مذياعٍ يبث الدود ؟
أتلو صحفاً تأمرني بالفرح المعهود ؟
لا ..
بل قلْ لأهلي : سأعود اليوم في برقيّةٍ ،
أو حُلُمٍ ،
فليدعُ لي أهلي وبَلِّغْ سائلي :
لا تنتظرْني في القريب العاجلِ
لستُ أحبُّ الموتَ ،
إني رابضٌ في موقع الموتِ ،
لنحيا في السعيد الآجلِ ..

٤ ـ الصيغة التي اتفقت مع عواد بشأن إرسالها إلى أهله

معاً ،
لم أنسكمْ ،
في القلب أنتم أيها الأحبابْ
مديدٌ يومُنا ، صعبٌ ، ولكنّا معاً ،
يشتدُّ قلبي حين يحصيكم منامي ،
ثم تزدادونَ ،
تزدادونَ ،
تزدادون حتى الصحوِ ،
تأتي الطائرات السود أو تمضي وتزدادون أطفالاً ،
إذا ما هزَّكم شوقٌ إلى وجهي ،
فوجهي في أخي باقٍ ،
وعندي صورة ، لا بُدَّ ، قُرْبَ الباب

أمي أبي
عَلَّمنا الاستاذ في مدرسة الهيئة أنَّ الأرض كانت كُرةً ،
واحترقَ العالِمُ أو خافَ وظلَّتْ كرةً ،

فادعُوَا لي واسمعاني جيداً ،
أنا قد واصلتُ سَيْري منذ ودَّعتكما واخترتُ درباً واحداً ،
ولهذا عندما أكمل دربي أنتهي أو ابتدي عندكما ،
فالأرض ظلَّتْ كرةً ، لا تنسيا ،
وانتظراني ،
وغداً عندكما ،
لا تنسياني ، وغداً يأتي أخي ، وابني غداً ..

« غداً » حدِّثه يا صخرة الغيّابْ
أنتِ غَنَّيْتِ غداً لا بالهوى الورديِّ لكنْ بالعذابْ
هل وردةٌ تسطعُ في روحيَ لولا دمعة الأحبابْ ؟

تمنّيتْ لأهلي ليلْ كلُّه انوارْ
إن تطفي ضوّي الريح تضوي كواكبه
ولا بدّ ما يصفى زماني وأعاتبه
وأخبرو شو كان فيِّي وصارْ

ويا أهلي مديدٌ يومُنا ،
وامتدَّ سلك شائكٌ في الروح ،
واشتدَّ الأذى لكنني عوّادْ
معي أهلٌ سواكم أهلهم أنتم ،
لهم أشواقهم مثلي ،
لهم في مستقرّ الريح أوهام وأحلام .. لهم أولادْ
الوطن الفقير لا يخذلنا
والمطر الناصع لا يخذلنا
الأرض ظلَّتْ كرةً ، أطفالها نحن ولا تخذلنا

لا تظنّا أنني رحتُ بعيدا
لا تشقّا أي ثوب إن أنا عدتُ شهيدا
كل ما أطلبه أن تذكرا
أنني ، مثل أبي ، أبقى فتيّاً أخضرا
وأنا لستُ وحيدا

باقٍ على ذِكْرِكُما ، واليوم صحوٌ ، وأرى في يومنا عيدا
وحولي النهر ، والأيام تعطيني العديدا
فأنا لستُ وحيدا .

حمص ١/١/١٩٨٢

دار الآداب تقدم

- زوربا
  نيكوس كازنتزاكي ـ ترجمة جورج طرابيشي
- العراب
  ماريو بوزو
- الموت السعيد
  البير كامو ـ ترجمة عايدة مطرجي ادريس
- الغريب وقصص اخرى
  البير كامو ـ ترجمة عايدة مطرجي ادريس
- قصة حب
  اريك سيغال
- قصة اوليفر
  اريك سيغال
- الموت حبا
  بيار دوشين
- صورة الفنان في شبابه
  جيمس جويس ـ ترجمة ماهر البطوطي
- الجحيم
  هنري باربوس ـ ترجمة جورج طرابيشي
- الشوارع العارية
  فاسكو براتوليني ـ ترجمة ادوار الخراط
- الصخب والعنف
  وليم فوكنر ـ ترجمة جبرا ابراهيم جبرا